An-Najah University Journal for Research – B
Humanities
مجلة جامعة النجاح للأبحاث – ب
العلوم الإنسانية

The Actantial Shifting Out in Emile Habibie's "Mendelbaum's Gate"

Motasem Basem Ghawadreh[1,*]

(Type: Full Article). Received: 29th Apr. 2025, Accepted: 27th Sep. 2025 Published: ××××. DOI: https://doi

Accepted Manuscript, In Press

Abstract: Objective: As the title indicates, this study analyzes *actantial shifting out* in Emile Habibi's short story *"Mendelbaum's Gate,"* traces the mechanisms through which it operates, and examines the functions it performs at the level of discourse. It investigates the various forms of reported discourse in the story—dialogue, reported monologue, immediate discourse, and metanarrative—through which actantial shifting out is achieved. The study identifies the structural positions in which these forms appear and clarifies the functions they fulfill within the discourse of the story. **Methodology:** The methodological framework is grounded in the discourse semiotics of A. J. Greimas and his student Joseph Courtés. **Results:** The study concludes that actantial shifting out is both analytically productive and practically effective, and that its role in enhancing the story's realism and constructing its broader significations becomes evident through analysis. **Recommendations:** The research recommends a critical approach that brings together actantial shifting out and reported discourse, drawing on insights from narrative and discourse semiotics as well as enunciative narratology.

Keywords: Actantial shifting out; Emile Habibi; "Mendelbaum's Gate"; Metanarrative; Reported discourse.

الفصل العاملي في قصة "بوّابة مندلباوم" لإميل حبيبي

معتصم باسم غوادره[1،*]

تاريخ التسليم: (2025/4/29)، تاريخ القبول: (2025/9/27)، تاريخ النشر: ××××

المُلخّص: الهدف: يعالج البحثُ إجراء الفصل العاملي في قصة إيميل حبيبي "بوّابة مندلباوم"، ويتتبَّعُ آليّة اشتغاله فيها، ويتناولُ أشكالَ الخطاب المنقول في القصّة، التي يتحقَّقُ بوساطتها هذا الإجراء، فيتوقَّفُ عند بنية الحوار، والمونولوغ المنقول، والخطاب الفوري، والقصة في القصة، ويعالِجُ المواضع التي وردت فيها، ويستجلي الوظائف التي اضطلعت بها في داخل خطاب القصة. **المنهج:** ويستند في منهجه إلى نظرية أ. ج. غريماس (A. J. Greimas) وتلميذه جوزيف كورتيس (J. Curtis) في السيميائية الخطابية. **أهم النتائج:** وينتهي إلى أنَّ لإجراء الفصل العاملي فاعليّةً في التطبيق، ومردوديّةً في التحليل، يتبيَّنُ دوره في إضفاء الواقعية على خطاب القصة، وبناء دلالته. **التوصيات:** ويوصي بإجراء مقاربة نقدية بين إجراء الفصل العاملي والخطاب المنقول، والإفادة ممّا أتاحته السيميائية السردية والخطابية، والسرديات التلفُّظية.

الكلمات المفتاحية: إميل حبيبي، الخطاب المنقول، الفصل العاملي، قصة "بوّابة مندلباوم".

1 Department of Arabic Language, Faculty of Humanities and Educational Sciences, An-Najah National University, Nablus, Palestine
* Corresponding author: motasim.ghawadreh@najah.edu

1 قسم اللغة العربية، كلية العلوم الإنسانية والتربوية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين
* الباحث المراسل: motasim.ghawadreh@najah.edu

مُقدّمة

تحضر بوّابة مندلباوم في الخطاب القصصي الفلسطيني دالّةً على مأساة النكبة، وحاملةً معانيَ الافتراق والقطيعة؛ فقد نصبها الاحتلال الإسرائيلي ليشطر بها مدينة القدس إلى قسمين، ويعزل أهلها بعضهم عن بعض. ومن أهمّ القصص القصيرة الفلسطينية التي تحدَّثت عنها: قصة "بوّابة مندلباوم" لإميل حبيبي، وقصة "عام آخر" لسميرة عزّام، وقصّة "الأفق وراء البوّابة" لغسّان كنفاني.

ويضع إميل حبيبي قصته "بوّابة مندلباوم" عام 1954م، أي في الفترة التي كانت البوّابة فيها موجودة، ويُضَمِّنُها مجموعته القصصية، التي أسماها: "سداسية الأيّام الستة وقصص أخرى"، علمًا أنَّ الاحتلال الإسرائيلي محا آثار البوّابة بعد عام 1967؛ لأنَّها شكَّلت عائقًا "يقبع في الوعي الصهيوني حول القدس؛ بكونها المدينة المقسمة غير المتجانسة، بين أحياء لليهود وأخرى للعرب، عدا عن كونها النقطةَ التي كان من الممنوع عليهم أن يعبروا من خلالها إلى الجزء الآخر من المدينة، خاصةً البلدة القديمة" (قطيش، 2018).

ويحافظ إميل حبيبي في خطاب قصّته على ملامح بوّابة مندلباوم الواقعية؛ لكونه يستقيها من العالم الذي كان يعيش فيه. يقول راوي قصَّته واصفًا البوّابة: "وفي الوسط ساحة رحبة من الأسفلت المعفّر، في قلب الناحية التي عرفناها باسم المصرارة. ولهذه الساحة بابانِ، بابٌ ((هنا)) وبابٌ ((هناكَ)) من الصفيح المحشوّ بالحجارة والمطليّ بالكلس الأبيض" (حبيبي، 2006، 97).

إذن؛ يحيل عنوان القصة "بوّابة مندلباوم" إلى فضاء مرجعي، له وجود على أرض الواقع بين عامي 1949 و1967. ولعلَّ مرجعيّة الفضاء في العنوان تدفع إلى البحث في داخل خطاب القصة عمّا يوهم بصدق ما يشير إليه.

وينطلق البحث من الفرض اللساني الذي يرى أنَّ صدق السرد لا يعتمد على إشارته الصحيحة إلى الواقع، بل على الإيهام بواقعيَّة ما يعرضه؛ لأنَّ السرد قد يستند إلى الخيال، الذي لا ينبني، بالضرورة، على مرجعيّة واقعية (Bruner, 1991, 13). ولكنَّ اتّكاء السرد على عالم خارج النص يُحقِّق وظيفة مرجعية؛ لكونه يخلق إيهامًا بواقعيّته (Bronwen & Felizitas, 2000, 110). ولذلك؛ يُحكَم على الحقيقة السردية استنادًا إلى صدق ما تشير إليه، لا إلى إمكان التحقُّق من وجودها.

وإذا أردنا البحث عمّا يوهم بصدق السرد وواقعيّته في خطاب القصة، فإنَّ ذلك يفرض علينا دراسة الإجراءات السردية الآتية فيه: الفضاء المرجعي (Referring space)، والفصل العاملي (The actantial shifting out)، والترسيخ التاريخي (Historical anchoring) الذي يتحقَّق على مستوى الخطاب بدمج التلفُّظ بالقرائن الآتية: تسمية الممثِّلين، وتسمية الأماكن، وعناصر الزمن. ولكنَّ البحث يقتصر في معالجته على الفصل العاملي، ويقف على أشكال حضوره في القصة، ويتتبّع آليّة اشتغاله في داخل كلّ شكل على حدة.

ولم يكن ثَمَّ اهتمام كافٍ بقراءة قصة "بوّابة مندباوم" أو تحليلها؛ إذ انصرف اهتمام الباحثين إلى غيرها من قصص إميل حبيبي (إسماعيل، 1971، 66- 72؛ محمود، 1984، 205- 222)؛ ربّما يكون ذلك لأنه أضافها إلى سُداسيّته في طبعة لاحقة ضمن قصص أخرى، فأسمى حينئذٍ مجموعته القصصية: "سداسيّة الأيّام الستّة وقصص أخرى".

ولا يُعْنى البحث ههنا بتبيان الأشكال والمظاهر، التي استعان بها إميل حبيبي لتَمثيل الواقع وتعريته في قصّته هذه أو في أدبه عامّةً، كالرصد التوثيقي، أو المقارنة التاريخية، أو المقارنة الأدبية (وادي، 1981، 113)، بل يُعْنى بتبيان أدوات إجراء الفصل العاملي، التي أوهمت بواقعية ما يشير إليه خطاب القصة، ويسعى إلى تجلية الدلالة التي تحملها تلك الأدوات، ويستند في ذلك إلى تنظير أ. ج. غريماس (A. J. Greimas) وتلميذه جوزيف كورتيس (J. Curtis) في السيميائية الخطابية.

مُمهِّدات تأسيسية

يُحدِّد غريماس وكورتيس مفهوم الفصل بصفته عمليةً تعزل هيئة التلفُّظ، التي تتكوَّنُ من اجتماع الحدود الآتية: (أنا، وهنا، والآن)، وتُسقِط خارجها مُمَثِّلين، وفضاءات، وأزمنة، كأنَّ الهيئة المتلفّظة لا علاقة لها بها، ويحيل الحدّ أنا إلى فاعل التلفُّظ، الذي يستهدف إجراءُ الفصل قَذْفَهُ خارج هيئة التلفُّظ، واستبدال عامل من عوامل السرد به (غريماس وكورتيس، 2020، 287). ويُعَدُّ الفصل العاملي أحد الإجراءات الخطابية، التي من شأنها أن تمنح الحكاية المروية انطباعًا أقوى بواقعيّتها، وتضفي عليها شيئًا من التصديق (كورتيس، 2010، 122). ويتحدَّد ضمن السيميائية الخطابية بالوصف الآتي (غريماس وكورتيس، 2020، 287):

"حتّى نتمكَّنَ من إعطاء تمثيل لآليّة الفصل، ينبغي أن نُشدِّدَ في البداية على أنَّ فاعل التلفُّظ المسؤول عن إنتاج الملفوظ يظلُّ دائمًا ضمنيًّا ومفترضًا، ولا يتجلّى أبدًا داخل الخطاب الملفوظ: لا يمكن اعتبار أي **أنا** نصادفه في الخطاب فاعلَ تلفُّظٍ خالص أو متطابق معه: لا يتعلَّقُ الأمر إلّا بتصاوُر تلفُّظ، أي تلفُّظ ملفوظ أو منقول".

ويُغَطّي مصطلح فاعل التلفُّظ، الذي يُستَعْمل عادةً مرادفًا للافظ، وضعيَّتَيْنِ عامليَّتَينِ: اللافظ والملفوظ له، ويُحدَّدُ اللافظ بوصفه المرسل الضمني للتلفُّظ، لكنَّه لا يظهر بصورة صريحة في الخطاب؛ لذلك يفوّض الراويَ، عادةً، بوظيفة السرد؛ إذ يمكنه الظهور فيه. أمّا الملفوظ له فلا يُمثِّلُ المرسل إليه الضمني

ACCEPTED

فقط، بل يشارك اللافظ في كونه الفاعل المنتج للتلفُّظ أيضًا، ولكنَّه لا يظهر بصفة مُثْبَتة في الخطاب، ويختلف بذلك عن المرويّ له الذي يتجسَّد في داخله بصفة معيَّنة (غريماس وكورتيس، 2020، 348).

ويستندُ غريماس وكورتيس في تحديد مفهوم الفصل العاملي إلى مقولة الشخص، التي تتمفصل إلى: شخص/ لا شخص (غريماس وكورتيس، 2020، 287 و288). يحيل الحدّ الأوَّل من هذه المقولة إلى الراوي، الذي يظهر بصورة صريحة في داخل الخطاب، ويتولّى وظيفة السرد فيه من خارج الحكاية؛ في حين يحيل الحدّ الثاني إلى أحد فواعل السرد التي تشارك في أحداث الحكاية، وتتولّى وظيفة السرد من داخلها، ويمكننا تمثيل إجرائية المقولة في الشكل الآتي:

أنا/ لا- أنا

ويرتبط إجراء الفصل العاملي، في اشتغاله، بالخطاب المنقول، الذي قوامه "قولٌ يصدر عن إحدى الشخصيّات فيُنْقَل بحرفيّته. وتكمن مهمة الراوي في إيراد كلام الشخصية الذي ينتهي إلى المرويّ له بطريقة مباشرة؛ أي دون وساطة هذا الراوي" (القاضي، 2010، 146). ويندرج تحت استراتيجية الخطاب المنقول نوعانِ من الخطاب (القاضي، 2010، 180-185؛ زيتوني، 2002، 90):

الخطاب المباشر: هو الاستشهاد الحرفيُّ بأقوال الشخصيات، ويكون الراوي فيه أمام أسلوبيْنِ: أسلوب مباشر تكون مهمَّته فيه إيراد كلام الشخصية بطريقة مباشرة دون وساطة هذا الراوي، وأسلوب فوري تتخلَّص فيه الشخصية من سلطان الراوي، فتقطع تلفُّظه دون إذنه، فيظهر كلامها دون مقدِّمة إسنادية.

الخطاب غير المباشر: هو الاستشهاد غير الحرفي بأقوال الشخصيات، ويكون الراوي فيه أمام أسلوبيْنِ: أسلوب غير مباشر يسمح له بتحليل كلام الشخصية وتفسيره بلغته بشرط أن يسبقه بما يدلُّ على مُتلفِّظه، وأسلوب غير مباشر حُرّ ينقل فيه حديثَ الشخصيةِ بلغته دون صيغة إسنادية تدلُّ عليها، وتنمحي ههنا العلاقة بين الشخصية والكلام الذي لم يُعْلِن عنها.

ويتولّى الراوي، إلى جانب وظيفته السردية، الوظيفةَ التوجيهية، التي تمكِّنه من تنظيم الخطاب، وضبط العناصر التي تسهم في تشكُّله، ومن ذلك إدراجُهُ خطابًا من درجة ثانية، تتولّى إحدى الشخصيّات سرده بلسانها، وينتُج من ذلك إجراء الفصل العاملي، الذي تتحقَّق فيه قطيعة تلفُّظية بين تلفُّظ الشخصية وتلفُّظ الراوي؛ ذلك أنَّ التلفُّظ الأوَّل مُضمَّن في التلفُّظ الثاني، وأنَّ لكلِّ تلفُّظٍ مقامَهُ والمشيراتِ، التي تحيل إليه (القاضي، 2010، 146). ويستند الراوي إلى مؤشِّرات عِدّة تدلُّ على توظيفه إجراء الفصل العاملي (نوسي، 2002، 75):

مؤشِّرات خطّية وأيقونية: يجسِّدُها تدخُّل الراوي في تنظيم الفضاء النصي، بطريقة يميِّز فيها أقواله من أقوال الشخصيّات المشاركة في أحداث الحكاية، فيلجأ إلى البياض بصفته فضاء يفصل بين الأقوال السردية، وقد يلجأ إلى وضع مزدوجتيْنِ أو نقطتين رأسيَّتَيْنِ، وتكون وظيفة المزدوجتيْن، لسانيًّا، الإشارةَ إلى تلك القطيعة التلفُّظية التي تتحقَّق بين تلفُّظ الراوي وتلفُّظ الشخصية (ريفارا، 2015، 113)، ويظهر جليًّا إجراء الفصل العاملي بهذه المؤشِّرات.

مؤشِّرات خطابية: يفتح الراوي المجال لإحدى شخصيّات الحكاية أن تتولّى وظيفة إنجاز الأقوال السردية، وأن تتحدَّث بلسانها، ويتحقَّق بذلك إجراء الفصل العاملي.

ويَرِدُ الخطاب المنقول في قصة "بوّابة مندلباوم" في الأشكال الآتية:

1. بنية الحوار (Dialogue structure).
2. الخطاب الفوري (Immediate discourse).
3. المونولوغ المنقول (Reported monologue).
4. قصة في قصة (Metanarrative).

ويتتبَّع البحثُ الأشكالَ هذه في خطاب القصة؛ ليستجلي آلية اشتغال إجراء الفصل العاملي من خلالها، ويبيِّن وظائفه التي يؤدّيها على مستوى الخطاب.

بنية الحوار (Dialogue structure)

تحتلُّ بنية الحوار المستوى الثاني في داخل الخطاب، ويرتبط اشتغالها بعوامل المحادثة: المخاطِب، والمخاطَب، التي يمكنها أن تأخذ محلّ الراوي، والمرويّ له باشتراكها في أحداث الحكاية، وإنجازها مجموعةَ أفعالٍ داخلها، وامتلاكها القدرةَ اللغوية التي تجعلها تسهم في التفاعل اللغوي (نوسي، 2002، 76)، ويتَّضح ذلك في قول غريماس وكورتيس: "تُطْرَح مشكلة مصطلحية صغيرة مقترنة بالتلفُّظ الملفوظ المثبت في الخطاب لمّا يتعلَّق الأمر بتصاورات اللافظ والملفوظ له- المعنيَّيْنِ بالمساهمة في التواصل البيذاتي المتمثِّل في مجموع الخطاب، المُدْرَجيْنِ في صلبه، فإنَّنا سَنُسَمّيهما على التوالي الراوي والمروي له. وبالمقابل، لمّا يتعلَّق الأمر بالبنية الحوارية من الدرجة الثانية، فمن الأولى الحديث عن المخاطِب والمخاطَب" (غريماس وكورتيس، 2020، 288).

وتؤدّي البنية الحوارية وظائف عدَّة على مستوى الخطاب القصصي، مثل: "الإيهام بالواقع، والوصف، والإخبار، ورسم ملامح الشخصيّات، ودفع الحركة القصصية، والإسهام في بناء الحكاية بالتمهيد لأحداثها أو بالارتداد إلى ما مضى منها مِمّا تعمَّد الراوي إسقاطه أو بالإشارة سَلَفًا إلى ما لم يبلغْهُ السردُ بعدُ" (القاضي، 2010، 159). ومن أهمِّ وظائفها لدى غريماس وكورتيس أنَّها تسهم في تكوُّن مسار الدلالة، وإقناع الملفوظ له بظاهر الحقيقة في الخطاب، كما يتَّضح في قولهما: "نُسجِّلُ هنا أنَّ كلَّ فصل داخليّ يُنْتِجُ أثرًا مرجعيًّا: يعطي الخطاب من الدرجة الثانية المثبت داخل الحكاية الانطباعَ بأنَّ

ACCEPTED

هذه الأخيرة تُشَكِّلُ وضعية حقيقية للحوار. وبصورة عكسية، فإنَّ الحكاية الموسَّعة، انطلاقًا من حوارٍ مُسجَّل في الخطاب، تجعل من هذا الحوار مرجعًا" (غريماس وكورتيس، 2020، 288).

ويظهر أوَّل توظيف لبنية الحوار في الموضع الآتي من خطاب القصة (حبيبي، 2006، 97):

"- ((بل قل يا سيّدي، إنَّها تنوي الخروج من هنا)). صاح الشرطي الإسرائيلي الواقف مكتوف اليدين، على بوابة مندلباوم، عندما أخبرْتُهُ بأنَّنا أتينا مع الوالدة التي ((تنوي الدخول إلى هناك بعد أن أُذِنَ لها بذلك)) وأشرْتُ إلى الجهة الأردنية من البوّابة".

احتلَّتْ بنية الحوار ههنا الموقع الطوبولوجي الأوَّل في خطاب القصة؛ لِما لها من دورٍ في تكوُّن مسار الدلالة على مستوى الخطاب؛ إذ تُعْلن عن راوٍ، يشارك في أحداث الحكاية، بوصفه فاعلًا فيها، جاء برفقة والدته، التي تنوي الانتقال من القدس الغربية المحتلّة إلى القدس الشرقية الأردنية، وبدأ يخاطِبُ الجنديَّ الإسرائيليَّ، ويُخْبِرُهُ عن سبب قدومه مع والدته إلى بوابة مندلباوم، فأعلَمَهُ أنَّها "تنوي الدخول إلى هناك بعد أن أُذِنَ لها بذلك" (حبيبي، 2006، 97). وتؤشِّر الوحدة المعجمية (أُذِنَ) على إجازة ما كان ممنوعًا، وتُبيِّنُ أنَّ اجتياز الوالدة بوّابةَ مندلباوم محظور عليها، إلّا إذا حصلَتْ على موافقة من قيادة منطقة القدس الإسرائيلية والاستخبارات العسكرية الأردنية، ومن ثَمَّ يمكنها الدخول منها إلى القدس الشرقية الأردنية.

ويظهَر الجندي الإسرائيلي، بوصفه مخاطَبًا في داخل بنية الحوار، أتاح له الراوي أن يتحدَّثَ بلسانه بضمير المتكلِّم أنا، فأحدث ذلك فصلًا عامليًّا، وضعنا أمام (أنا) لا تحيل إلى الراوي، بل إلى شخصية من شخصيّات القصة.

ويتجلّى في حديث الجندي الإسرائيلي تبنّيه منظورًا سرديًّا يغاير المنظور الذي يتبنّاه الراوي؛ يُعْلِنُ فيه رَفْضَهُ مصطلحَ "الدخول"، الذي ورد على لسان الراوي، ويأمره بالعدول عنه إلى مصطلح "الخروج". إذن؛ تُطْلِعُنا بنية الحوار على منظورَيْنِ لفعل واحد، من شخصيَّتَيْنِ؛ شخصية الراوي الذي يرى في تنقُّل والدته بين القدس الغربية والقدس الشرقية أمرًا طبيعيًّا؛ لكونها تتنقَّلُ في داخل أرضها، وشخصية الجندي الإسرائيلي الذي يرى في اجتياز الوالدةِ البوّابةَ أمرًا ممنوعًا؛ لأنَّ القدس الغربية باتت تحت السيطرة الإسرائيلية، ومَنْ يغادرُها من الفلسطينيّين فلا يُسْمَحُ برجوعه إليها.

وثَمَّ مشيرات لغوية لا تتولّى وظيفة الإشارة إلى أقوال المتحاورين فقط، ولكنَّها تشمل أيضًا مجموعة من العناصر الدالَّة، التي تبيّنُ دلالة الحوار؛ كأن تشمل وصفًا لطريقة السؤال أو لنبرة المخاطِب ولهجته (نوسي، 2002، 78). تتجلّى في الموضع الآتي داخل الخطاب القصصي (حبيبي، 2006، 97):

"وأطلقَ الشرطي كلمة ((الخروج)) من بين أسنانه في غُنّة، أراد بها أن يُلقِّنني درسًا. فالخروج، ويريد أن يقول: من الجَنّة، هو الأمر الجلل، لا الدخول ((إلى هناك))!"

فيتَّضحُ أنَّ لطريقةِ نُطْقِ الشرطي كلمةَ "الخروج" دلالةً معيَّنة، فكأنَّهُ يبتغي الإشارة إلى أنَّ والدة الراوي ستخرج من مكانٍ يُضاهي الجَنَّة إلى ما هو دونَهُ، ولا يعود بإمكانها بعدئذٍ الرجوع إليه. ويُجلّي ذلك الفصلُ العاملي، الذي تحقَّقَ حين سمح الراوي لشخصية عسكري الجمارك بأن تتحدَّث بلسانها؛ لتخاطِبَه هو ومَنْ رافقه لتوديع والدته، كما يتبيَّنُ في الموضع التالي (حبيبي، 2006، 97):

"وعسكري الجمارك لم يَشَأْ أن تفوتنا العبرة. فقال لنا ونحن نتبادل قبلات الوداع مع الوالدة: ((من يخرج من هنا لا يَعُدْ أبدًا))".

وتتجلّى البنية الحوارية أيضًا في داخل خطاب القصة في الموضع التالي (حبيبي، 2006، 102):

"ولمّا أخذت أختي تتوسَّل إلى الجندي الواقف على ((بابنا)) أن يأذن لها بتشييع والدتها حتّى الباب الأردني، قال الجندي: ((ممنوع، يا سيَّدتي)).

- ((ولكنَّني أرى هؤلاء الأجانب يدخلون ويخرجون كما لو كانوا في بيتهم وأعزّ))!
- ((كلُّ من عليها يا سيَّدتي يستطيع الدخول والخروج عبر هذيْنِ البابيْنِ، إلّا أهل البلاد يا سيَّدتي المحترمة))"

تُشكِّل البنية الحوارية ههنا تفاعلًا لغويًّا بين أخت الراوي والجندي الإسرائيلي، ويستلزم تحليلها تبيان الدلالة، التي تحملها، والاستناد إلى السياق الذي وردت فيه.

أخذت أخت الراوي تستجدي الجنديَّ، وتتوسَّل إليه لكي يسمح لها بأن ترافق والدتها من الباب الغربي الإسرائيلي إلى الباب الشرقي الأردني، فكان موقفه الرفض؛ لأنَّ القانون الإسرائيلي يمنع ذلك، ما دفعها إلى مواجهته بحقيقة ما يجري؛ فالأجانب يدخلون إلى البوّابة، ويخرجون منها بحرّية مطلقة، ولا يجدون في أثناء ذلك أي تضييق أو تشديد، يعبرونها وكأنَّهم في بيتهم، بل كأنَّهم في مكان أفضل من بيتهم.

وتكشف بنية الحوار ههنا صورة الواقع، الذي جسَّدته بوّابة مندلباوم، فتُبيّن حالة الحرّية، التي كان الأجانب يتمتَّعون بها، مقابلَ حالة الحصار التي فُرضت على الفلسطينيّين في أرضهم، إذ بدلًا من أن تكون لهم الحريّة في التنقُّل عبر البوّابة، حاز غيرهم عليها، مِمَّنْ ليسوا أهلها الأصليّين.

وفي هذا السياق، يخاطِبُ الجنديُّ الراويَ وأختَهُ ومَنْ معهما، كما يتجلّى في الموضع الآتي (حبيبي، 2006، 102):

ACCEPTED

"وقال الشرطي: ((أرجوكم أن تبتعدوا عن الطريق، هذا طريق عامّ شديد الازدحام)). وقطع كلامه ليتبادل مع راكبي سيّارة قادمة ... حديثًا ضحكوا له، وضحك لهم. وأمّا نحن فلم نفهم النكتة".

فتُجلّي بنية الحوار مفارقةً في تعامل الجنديّ الإسرائيلي مع الفلسطينيّين والأجانب؛ إذ يقابِلُ الفلسطينيّين بازراء وتكبُّر، فيطلب إليهم التنحّي والابتعاد عن الطريق؛ حتّى يتيح لشخصية أجنبية أن تمرَّ بسيّارتها دون أن يأبه بهم ودون أن يهتمَّ بطلبهم مرافقةَ الوالدة إلى الباب الشرقي الأردني. وفي مقابل ذلك؛ يعاملُ الجنديُّ الأجانبَ باحترام ووُدٍّ، ويسعى إلى ملاطفتهم، وإرضائهم، وإضحاكهم، وتبادل النكات معهم.

وفي السياق نفسه، يخاطب عسكريُّ الجمارك الراويَ وأختَهُ ومَنْ معهما، كما يتَّضح في الموضع التالي (حبيبي، 2006، 102):

"وقال عسكريُّ الجمارك: ((لكلِّ شيء نهاية حتّى لساعة الوداع))".

فيحيل خطابه إلى انتهاء لحظة وداع الراوي ومرافقيه للوالدة دون أن يُسمَح لأيّ أحد منهم بمرافقتها إلى الباب الشرقي الأردني، ويؤشّر ذلك على سلطة الاحتلال وسطوته، وقَهْرِهِ الفلسطينيّين وإمعانه في ازدرائهم.

وينقل الراوي الحديثَ الذي وجَّهَهَ جندي إسرائيلي له ولِمَنْ معه، حين قطعت الوالدة الباب الغربي المحتلّ إلى الباب الشرقي الأردني، كما يتجلّى في الموضع التالي من خطاب القصة (حبيبي، 2006، 103):

"وكنّا هنا، مع أطفالنا، نلوّح بأيدينا. وقد وقف أمامنا جندي فارع الطول حاسر الرأس، وهو يتحدَّث معنا... وكان يقول لنا: إنَّه من المستحيل التقدُّم خطوة أخرى إلى أمام. ولماذا قال لنا: ((كأنَّما هي قد قطعت الآن وادي الموت الذي لا رجعة منه. هذا هو واقع الحرب والحدود وبوّابة مندلباوم. أرجوكم، أَفْسِحوا مكانًا لمرور سيّارة الأمم المتَّحدة))!"

وتُجلّي بنية الحوار ههنا مفارقة في تعامل الجنديّ الإسرائيلي مع الفلسطينيّين والأجانب؛ فقد اجتازت الوالدةُ بابَ البوّابة الغربيَّ، الذي يهيمن عليه الاحتلال الإسرائيلي حتّى وصلت الباب الشرقي الأردني، كأنَّها سلكت وادي الموت، بحيث لا يمكنها العودة إلى المكان الذي خرجت منه؛ في حين دخل الأجانب إلى القدس الغربية بسيّارة الأمم المتّحدة، ويمكنهم الخروج منها؛ فهؤلاء، كما يقول الراوي في القصة، "لا يسري عليهم قانون الموت: من خرج منها لا يعود إليها. ولا قانون الجنّة: من دخلَها لا يخرج منها" (حبيبي، 2006، 101).

وإضافةً إلى ذلك؛ لم يسمح الجنديُّ الإسرائيلي لأيّ أحد من مرافقي الوالدة أن يتقدَّم أيّ خطوة معها، حين قطعت المسافة التي تفصل بين بابَيّ البوّابة؛ ولكنَّهُ سارع، وقتئذٍ، في تأمين الطريق لتمرّ سيّارة الأمم المتَّحدة، ويسَّرَ دخولها. وللراوي وصفٌ في خطاب القصّة، يُجلّي التعاملَ الذي يجده مثل هذه السيّارات؛ يقول: "تقفُ برهةً على ((بابنا))[1] ليتبادل سائقها التحية مع ((شرطيّنا))[2] من باب الذوق والتمدُّن، ثُمَّ تقطع ((الأرض الحرام))[3]؛ حتّى تقف برهة على ((بابهم))[4] ليتبادل سائقها التحية مع ((شرطيّهم))[5]. ومن باب الذوق والتمدُّن وتبادل علب السجائر والنكات وغيرها، تقوم هنا منافسة إسرائيلية أردنية" (حبيبي، 2006، 101).

ويوجّهُ الجنديُّ الإسرائيلي خطابه إلى الراوي ومرافقيه مرَّة أخرى في خطاب القصة، بعد اجتياز ابنتِه واديَ الموت كما يتَّضح في الملفوظات التالية (حبيبي، 2006، 105):

"((أرجوكم، أيُّها السادة، أن تبتعدوا عن الطريق لِئلّا يسقط طفل من أطفالكم بين عجلات السيّارات التي تمرُّ من هنا بسرعة، كما ترَوْنَ))".

فتوضِّحُ بنية الحوار ههنا التسهيلات التي كانت تُمْنَح للأجانب في اجتياز البوّابة؛ إذ كانوا يمرّون منها بوساطة سيّاراتهم، ويعبرونها بسرعة؛ كأنْ لا قيود تعيق دخولهم. وفي مقابل ذلك، ثَمَّ تضييقات على الفلسطينيّين عند محاولتِهم اجتيازَها، فلا يتاح لهم مجرَّد الوقوف أمامها، إلّا لمدّة لا تطول، بل ثَمَّ خطر على أطفالهم من السيّارات الأمريكية والأجنبية، التي تعبر البوّابة وهي مسرعة، دون أن تأبه لهم، وكأنْ لا قيمة لوجودهم.

ويتبدّى أنَّ الجندي الإسرائيلي ينطلق في تعامله مع الفلسطينيّين والأجانب من "واقع الحرب والحدود وبوّابة مندلباوم"؛ ذاك الواقع الذي أنتجَتْهُ نكبة عام 1948، وكان من آثاره الحدود التي فصلَت فلسطينيّي القدس بعضَهم عن بعض، وبوّابة مندلباوم التي برزت بوصفها شاهدًا على تلك الحقبة، ورمزًا دالًّا على تقسيم مدينة القدس، وعلى أرضها ظهر التباين الذي يستند إليه الجندي الإسرائيلي في تعامله مع الفلسطينيّين، أصحاب الأرض، والأجانب الذين منحوه إياها دون وجه حقّ. وعليه؛ ضَيّق على أصحاب الأرض، وفرض الحصار عليهم؛ في حين أرضى الأجانب، وأعطاهم حُرّية التنقُّل فيها.

(1) الباب الغربي لبوّابة مندلباوم التابع للاحتلال الإسرائيلي.
(2) الشرطي الإسرائيلي.
(3) تشمل المسافة التي تفصل بين بابَيْ بوّابة مندلباوم: الباب الشرقي الذي يقع تحت حكم الأردن، والباب الغربي الذي يستولي عليه الاحتلال الإسرائيلي.
(4) الباب الشرقي لبوّابة مندلباوم التابع للحكم الأردني.
(5) الشرطي الأردني.

ويتجلّى الفصل العاملي في إتاحة الراوي لوالدته أن تقطع تلفُّظه، وأن تتحدَّث بلسانها، فينقل خطاب والدته مرّات عدّة، بأسلوب الخطاب المباشر، فيذكره بحرفيَّته؛ ما يجعل تلفُّظها مستقلًّا عن تلفُّظه، ومنقطعًا عنه.

ويتحقَّقُ الفصل العاملي على لسان الوالدة في داخل خطاب القصة، ويأخذ شكل عبارات صرَّحَت بها، وكان الراوي شاهدًا عليها، من ذلك ما يتَّضحُ في المقطع السردي الآتي (حبيبي، 2006، 98):

"وأحسبُ أنَّ مثل هذه الأفكار كان يلاحق الوالدة في أيّامها الأخيرة بيننا، فحين اجتمع الأهل والأصحاب في بيتها عشيّة السفر إلى القدس، قالت: ((لقد عشتُ حتّى رأيتُ المُعزّين بي بأُمِّ عيني)). وفي الصباح عندما نزلنا منحدر الزقاق إلى السيّارة، التفتت وراءها ولوّحت بيدها لأشجار الزيتون ولشجرة المشمش الجافّة ولعتبة الدار، وتساءلت: ((عشرين سنة عشتُ هنا، فكم من مرّة طلعت هذا الزقاق ونزلته؟!))

ولمّا مَرَّت بنا السيّارة على المقابر، في ضاحية المدينة، هتفت تنادي الموتى من أقربائها ومن أقرانها، وتُودِّعُ قبورهم: ((كيف لم يكن من حظّي أن أُدْفَنَ هنا؟ ومن سيضع الزهور على قبر ابنة ابني؟))".

فيتجلّى في الملفوظات السردية الآتية:

- "لقد عشتُ حتّى رأيتُ المُعزّين بي بأُمِّ عيني".
- "عشرين سنة عشتُ هنا، فكم من مرّة طلعت هذا الزقاق ونزلته؟!".
- "كيف لم يكن من حظّي أن أُدْفَنَ هنا؟ ومن سيضع الزهور على قبر ابنة ابني؟"

أنَّ الراوي يضعنا في هذه الملفوظات أمام ضمير المتكلِّم أنا، الذي لا يحيل إليه، بل إلى شخصية من شخصيّات القصّة، ويجري بذلك الفصل العاملي على لسان والدته في داخل الخطاب. ويحمل خطاب الوالدة في الملفوظ الأوَّل فكرةَ موتها بعيدًا عن بيتها وأهلها حين تغادر القدس الغربية إلى القدس الشرقية، ولذلك تنظر إلى زيارة الأهل والأصحاب لها عشيَّة سفرها وكأنَّها تعزية بموتها المقبل، الذي لن يكون بينهم. ويحمل خطاب الوالدة في الملفوظ الثاني ذاكرتَها في المكان، وذكرياتِها فيه، ويشير خطابها في الملفوظ الثالث إلى حسرتها على وطنها، واستنكارِها فكرةَ الموت بعيدًا عنه وعن ذكرياتها فيه.

ويتجلّى الفصل العاملي أيضًا على لسان الوالدة في الموضع التالي (حبيبي، 2006، 99):

"هذه العتبة، عتبة الدار التي تُلْقي عليها الآن آخر نظرة، لِتَنْطُقْ وتشهَدْ! كم من مَرَّة وقفَتْ عليها تودِّعُ عرسانها[1]، وتُغنّي لهم وهي تشرَق بدموعها ((جبتك من الهيش جلبوط ما عليك الريش. وعلَّمْتَك الزقزقة والطير والتعشيش. ومن بعد ما كبرت وصار عَجناحك ريش. طرت وراح تعبي عليك بخشيش)). ولو قيل لها: إنَّ هذا كله هو ((الوطن)) لما زيدت فهمًا. ولكنَّها الآن، وهي تشرف على ((الأرض الحرام))، وتنتظر الإشارة لها بالتقدُّم خطوةً إلى أمام، تلتفتُ إلى ابنتها وتقول: ((نفسي في جلسة أخرى على هذه العتبة))!".

فيتجلّى أنَّ الراوي أتاح لوالدته أن تقطع تلفُّظه، وتتحدَّث بلسانها؛ ليعكس مدى ارتباطها بأرضها، وخوفها على ذكرياتها فيه؛ فما تلفَّظَت به يوحي برغبتها في أن تعود إلى بيتها مرّة أخيرة؛ لتجلس على عتبته، وتستعيد ذكرياتها فيه: ذكريات توديعِها أبناءَها في ليالي زفافهم، وغنائها لهم فيها، وبكائها على فراقهم بعد أن خرجوا واحدًا تلو الآخر إلى بيت الزوجية.

وينقل الراوي ما قالَتْهُ والدته ههنا في خطاب القصة بلهجتها الدارجة، دون أن يتصرَّف فيه؛ فالدارجة لغتها، التي تستعملها في حياتها اليومية، جعلها تتحدَّث بها؛ لأنَّها تضفي الصدق والواقعية والحيوية على ما تلفَّظت به؛ وليس ثَمَّ مسوغ فني يمنع من استعمال الدارجة في لغة الحوار، "بل إن طبيعة رسم الشخصية في القصة، تتطلَّب ذلك وتعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا" (نجم، 1974، 122).

وينقل الراوي الأغنية الشعبية كما تلفَّظت بها والدته؛ لأنَّها تمنح تلفُّظَها شيئًا من الصدق والواقعية، وتعكس البيئة المحلية، التي تنتمي إليها، وتكشف جزءًا من العادات والتقاليد التي يسير عليها الفلسطينيّون في أعراسهم.

وهكذا؛ يتبيَّن أنَّ الراوي استطاع أن يضفي الصدق على خطاب القصة، وحقَّقَ انطباعًا أقوى بواقعية الحكاية المُجسَّدة في داخله، حين أتاح لوالدته - أوَّلًا- أن تقطع تلفُّظه، وتتحدَّث بلسانها، وحين نقله -ثانيًا- بلغتها الدارجة دون أن يتدخَّل فيه، مع أنَّه لم يلجأ إلى الدارجة في تلفُّظه قطُّ في داخل خطاب القصة.

وانطلاقًا من ذلك؛ يتَّضحُ أنَّ الراوي يُوظِّفُ بنية الحوار في خطاب القصة:

1. ليُثبِّتَ دلالةً معيَّنة حكمت الخطاب القصصي من بدايته إلى نهايته، تمثَّلَتْ في الحصار المفروض على الفلسطينيّين، ويتجسَّد ذلك في الأقوال التي تدلُّ على عدم امتلاكهم الحرّية في اجتياز بوّابة مندلباوم، وعدم قدرتهم على الرجوع إلى الشطر المحتلّ من القدس إذا غادروه. وفي مقابل ذلك، ثَمَّ حرّية مطلقة مُنِحت للأجانب في اجتياز البوّابة، ويمكنهم بناء عليها التنقُّل عبرها دون أن يواجهوا أيّ تضييق.
2. ويشير إلى حقيقة الواقع الذي فرضته نكبة عام 1948م على الفلسطينيّين بعد تقسيم مدينة القدس إلى شطريْنِ،

(1) يقصد أولادها المقبلين على الزواج.

وتشييد بوّابة مندلباوم لتكون المنفذ الوحيد للتنقُّل بين شطريْها.

ويتَّضحُ أنَّ بنية الحوار أنتجت في الخطاب أثرًا مرجعيًّا، يوهم بحقيقة ما تشير إليه، وأعطت انطباعًا بصدق ما تشير إليه الحكاية في داخل الخطاب.

الخطاب الفَوْري (Immediate discourse)

ينقل الراوي فيه كلام الشخصية بحرفيَّته دون مقدِّمة إسنادية، بحيث يمحو العلامات السياقية في داخل العملية السردية (جينيت وآخرون، 1989، 107)، "وقوامه تخلُّص كلام الشخصية من سلطان الراوي عليها؛ إذ تتكلَّم دون أن يأذن لها بذلك" (القاضي، 2010، 183)، ولا تُستخدَم فيه عبارات تؤطِّره، مثل معلنات القول أو علامات التنصيص، ويخلو من العلامات الدالّة على وساطة الراوي (برنس، 2003، 47)، وينجم عنه قطيعة تلفُّظية بين تلفُّظ الراوي وتلفُّظ الشخصية، يتحقَّق بوساطتها إجراء الفصل العاملي.

يقطع الشرطي الإسرائيلي تلفُّظ الراوي، حين تحدَّث في موضعيْنِ من خطاب القصة دون إذن منه يُعْلِن عن انتقال القول إليه، أي دون أن يسبقَ كلامَه أيٌّ من معلنات القول. أمّا الموضع الأوَّل فيتَّضح في الملفوظات السردية الآتية (حبيبي، 2006، 101 و102):

"إنّي أنصحكَ ألّا تأتي بوابة مندلباوم وفي صحبتك أطفال، لا لأنَّ البيوت المتهدِّمة والمقفرة هنا تستدرجهم للبحث في داخلها عن ((المصباح المسحور)) وعن ((مغارة علاء الدين)). ولا لأنَّ الشعور المسترسلة على السوالف تضع في أفواههم أسئلة استفزازيَّة قد توقعك في ورطة. بل لأنَّ الشارع الذي يفضي إلى بوّابة مندلباوم لا يخلو، ولا للحظة واحدة، من السيّارات التي تقطعه، بسرعة أُوروبيَّة، إمّا قادمة ((من هناك))، وإمّا خارجة ((من هنا))، وهي سيّارات أمريكيّة أنيقة، وراكبوها من الناس الأنيقين، ذوي الياقات المنشّاة، أو القمصان المُلوَّنة، أو البزّات العسكرية التي خيطت لتصطبغ بقطرات الويسكي لا بقطرات الدم".

فيضعنا الراوي أمام ضمير المتكلِّم المفرد، الذي لا يحيل إليه، بل يحيل إلى الشرطي الإسرائيلي، فيظهر خطابه مستقلًّا عن خطاب الراوي ومنقطعًا عنه، ويدع الحديث له، ويأتي به على شكل نُصْحٍ للراوي، يكشف من خلاله الشيء الطبيعي ونقيضه (ياغي، 1989، 12)، ويعكس ما كان يجري في الواقع، ويُعرّيه، فيتبيَّن في نصحه أنَّ:

1. البيوت الفلسطينيّة القريبة من بوّابة مندلباوم تخلو من أهلها بعد تدمير الاحتلال الإسرائيلي لها أيّام النكبة، وبات غيرهم يستوطنها.
2. وحضور الأطفال الفلسطينيّين إلى البوّابة يُشكِّل خطرًا عليهم، أمّا حضور أطفال الطائفة اليهودية المتديّنة ذوي الشعور المسترسلة فيها، فليس فيه أيّ خطر أو قلق عليهم.
3. والفلسطينيّين عند اجتيازهم بوّابةَ مندلباوم يخضعون لإجراءات صارمة، أمّا الأجانب فيجتازون البوّابة في سيّاراتهم بحرّية مطلقة، يدخلون إلى القدس الغربية، ويخرجون منها دون أن يكون في ذلك أيّ حرج.

إذن؛ يشير خطاب الجندي الإسرائيلي إلى الواقع، الذي كان يجري في بوّابة مندلباوم، فيبيّنُ حالة الحريّة، التي توافرت لرجال الهدنة، ولجان المراقبة، وهيئة الأمم المتّحدة، حيث أتيح لهم اجتياز البوّابة بسيّاراتهم "بسرعة أوروبية"؛ ما يؤشِّر على عدم تعرُّضهم إلى أيّ تضييق عند اجتيازهم البوّابة. وفي المقابل، يُبيّنُ حالة الحصار، التي فُرضت على الفلسطينيّين في أرضهم، وهي حالة تناقض ما هو طبيعي، وتخالفه.

وفي الحقيقة، يؤشّر الخطاب القصصي هنا على ما كان يجري في الواقع؛ إذ كانت تُمنح تصاريح المرور الدائمة لاجتياز بوّابة مندلباوم لقناصل الدول الأجنبية العامّين ونائبيهم ومساعديهم وأفراد عائلاتهم، الذين يعيشون في كنفهم، والذين يعملون في القدس الشرقية والمحتلّة، في حين كان الفلسطينيّون يواجهون إجراءات معقَّدة حتّى يحصلوا على تصاريح مرور مؤقَّتة، وتُقابَل طلباتهم غالبًا بالرفض أو التسويف (عبد الجبار، 2003، 17).

أمّا الموضع الثاني الذي يتجلّى الخطاب الفوري فيه على لسان الشرطي الإسرائيلي، فيقع في الملفوظات السردية الآتية (حبيبي، 2006، 105):

"أفهمتَ لماذا نصحتُكَ ألّا تأتي بوابة مندلباوم وفي صحبتك أطفال؟ إنَّ منطقهم بسيط غير مركَّب. ما أسلمَهُ!"

فيُقدِّمُ الجندي الإسرائيلي خطابه ههنا، الذي ينقطع فيه عن خطاب الراوي، ويُوجِّهَهُ إليه بعد اجتياز طفلته "الأرض الحرام"، تلك المنطقةَ التي تضمُّ المسافة بين بابَي البوّابة: الشرقي، والغربي، علمًا أنَّ القانون الإسرائيلي يمنع ذلك ويحظره، ولكنَّ الطفلة لم تأبه لقانون الاحتلال، قطعت الأرض الحرام، وأقبلت على جدّتها؛ لتحضنها، وتودِّعها. وتفسير صنيعها، كما يرى الراوي، أنها "طفلة جاهلة لا تدرك الفرق بين العسكري الذي يلبس الكوفية والعقال[1] والعسكري الحاسر الرأس[2] ... رأت أنَّه على جانب يقف والدها وعلى الجانب الآخر تقف جدَّتها، فلماذا لا تسرح ولا تمرح بينهما كما كانت تفعل كلَّ يوم؟ خصوصًا أنَّها ترى سيّارات[3] تروح وتجيء على ((الأرض الحرام))، تمامًا كما تفعل السيّارات على الشارع قرب بيتها" (حبيبي، 2006، 104). ولذلك عَدَّ

(1) العسكري الأردني الذي يقف على باب بوابة مندلباوم الشرقي.
(2) العسكري الإسرائيلي الذي يقف على باب بوّابة مندلباوم الغربي.
(3) السيّارات الأمريكية (الأجنبية) التي تعبر البوّابة بسرعة وسهولة.

الشرطيُّ الإسرائيلي صنيعَها بسيطًا، جرى دون أن تعي أنَّهُ ممنوع.

ولعلَّ الشرطي الإسرائيلي قطع تلفُّظَ الراوي، وتحدَّث في الموضعيْنِ دون إذنه؛ ليشير إلى عدم خضوعه لسلطته أو سطوته، لا في اللغة، ولا في لواقع. ومن ناحية أخرى؛ يقدّم إجراء الفصل العاملي ههنا الواقع، الذي كان يجري في بوّابة مندلباوم، ويستند خطاب القصة إليه؛ ليُحصِّل بوساطته انطباعًا أقوى عن صدق ما يشير إليه.

المونولوغ المنقول (Reported monologue)

يعني إيراد الراوي أفكارَ الشخصية إيرادًا حرفيًّا كمّا تلفَّظت بها في ذهنها، وينجم عن ذلك "نوعان تلفُّظيانِ متباينانِ صوتًا ومقامًا من ناحية أنَّ صوت الراوي ومقام قوله غيرُ صوت الشخصية والمقام الذي تكلَّمت فيه" (القاضي، 2010، 432)، ويتحقَّق إجراء الفصل العاملي بوساطته؛ لأنَّ الراوي يتيح للشخصية أن تقطع تلفُّظه، وتنقلَ ما يدور في داخلها من أفكار.

يوردُ الراوي ما كان الأطفال الفلسطينيّين يفكِّرون فيه عند رؤيتهم أطفالَ الطائفة اليهودية المتديّنة بالقرب من بوّابة مندلباوم، وينقله بحرفيَّته كما تلفَّظوا به في أذهانهم، كما يتجلّى في الموضع التالي داخل خطاب القصّة (حبيبي، 2006، 97):

"وأطفال استرسلت شعورهم على سوالفهم كانوا يمرحون بين الحطام وبين الخضرة، يثيرون الدهشة في نفس الأطفال، الذين جاؤوا معنا يودِّعون جَدّتهم: ((صبيان وذوو ضفائر؟ كيف يكون هذا))؟".

يحمل المونولوغ ههنا دُفَعًا من أسئلة لا تحتاج أجوبةً؛ لكونه يُجلّي دهشةَ الأطفال الفلسطينيّين من وجود أطفالٍ ذوي ضفائرَ في الحي القريب من بوّابة مندلباوم. وينقل الراوي هذا المونولوغ بحرفيَّته، ويتيح للأطفال الفلسطينيّين أن يقطعوا تلفُّظه في داخل الخطاب، فيحقِّق بذاك إجراء الفصل العاملي؛ فالقول السردي:

"((صبيان وذوو ضفائر؟ كيف يكون هذا))؟"

ورد على لسان الأطفال الفلسطينيّين، وليس على لسان الراوي، وإن كان هو مَنْ نقلَهُ. ويحيل الفعل المضارع (يكون) فيه إلى زمن تلفُّظي، حدث قبل زمن تلفُّظ الراوي وهو ينقل ما كان أولئك الأطفال يُفكِّرون فيه.

إذن؛ يوظِّفُ الراوي المونولوغَ المنقول ليؤشِّر على الواقع الجديد الذي حلَّ في القدس، ويقدِّمَهُ ليكون دالًّا على محاولتِهِ الإيهام بصدق خطاب القصة وواقعيّته.

قصة في قصة (Metanarrative)

يُقْصَد بهذا المفهوم القصةُ المؤطَّرة التي يكون راويها شخصيةً من شخصيّات القصة الإطار، ويعني ذلك تحوُّلًا في مستوى السرد من القصة التي تُرْوى من الدرجة الأولى إلى القصة التي تُرْوى من الدرجة الثانية (القاضي، 2010، 336). ويُسمّى راوي القصة الإطار راويًا من خارج الحكاية؛ لأنَّ راويًا آخر لم يُدرجْه في القصّ. في حين يُسمّى راوي القصة المؤطَّرة راويًا من داخل الحكاية؛ لكونه يُعَدُّ شخصية من شخصيّات الحكاية التي يرويها راوي القصة الإطار (القاضي، 2010، 334).

ويُدْرج راوي قصة بوّابة مندلباوم راويًا آخر، هو خاله، ويتيح له أن يقطع تلفُّظه ويسرد قصة مؤطَّرة في سياق بنية حوارية، جرت بينه وبين جاره، أعلن فيها الأخير أنَّ الأمر سينتهي، حتمًا، بتوقيع خال الراوي (الشيخ القروي) على ورقة بيع أرضه لجيش الاحتلال الإسرائيلي، ويلتفت ههنا إلى ابن أخته (الراوي)، ويروي له القصة المؤطَّرة، كما يتجلّى في الموضع التالي (حبيبي، 2006، 100):

"وقال له جارنا:

- ((ولكنَّك في نهاية الأمر ستوقِّعُ لهم على ورقة البيع؛ فالقانون معهم)). والتفت الشيخ القروي نحوي وقال:
- ((اسمع يا خالي، كنّا مرَّة نحرس المقثاة أنا وأبي وأخي الأصغر. وإذا برَفٍّ من الحجل يهبط في الحقل. فاستعجل أخي يحمل بندقيّة الصيد كأنَّهُ الرجل، فغشي أبي من الضحك. هل تذكر كيف كان يضحك جدُّك، يا خالي؟ يا ولد صيد الحجل للرجال! ولكنَّ صغيرنا كان عنيدًا. فعاد إلينا بعد ساعة وفي يده، يا للعجب، طير من الحجل لا يزال على قيد الحياة. فذُهلْنا. وأمّا العفريت الصغير فكان يرقص وهو يتباهى بصيده. وصاح أبي: ولكنَّنا لم نسمع صوت الطلقة! فأجاب الصيّاد الصغير: لقد سحرتُ البندقيّة يابا.. وحلَّفني بجدودي وبجدود جدودي ألّا أُفْشِيَ السرّ أمام والدنا، حتّى أخبرني أنَّه رأى هذا الطير المسكين بين فَكَّيْ قطٍّ كبير، فظلَّ يركض وراء القطّ من عُلَّيقة إلى عُلَّيقة وبين أعواد الذُّرة حتّى خلَّصه منه .. هيه، يا خالي، هل ينتظرون منّي أن أوقِّع على قسيمة بيع هذه الذكريات؟! .. ما أقصر باع قوانينهم!".

يتَّضحُ ههنا أن راوي القصة الإطار أتاح لخاله أن يسرد بلسانه قصَّةً، كانت قد جرت معه، فلذلك لا يحيل ضمير المتكلِّم المفرد في داخل القصة المؤطَّرة إلى الراوي، بل إلى خاله (الشيخ القروي)، ويتبدّى ههنا محاولة الأخير أن يعطي انطباعًا أقوى عن حقيقة ما تشير إليه قصته؛ لاستعماله أدوات سردية، توحي بذاك:

الخطاب الفوري: تقطع شخصية الوالد تلفُّظ ابنها راوي القصة المؤطّرة، وتتحدَّث دون إذنه، كما يتجلّى في الموضع الآتي:

"يا ولد صيد الحجل للرجال!"

ACCEPTED

بنية الحوار: يتيح رواي القصة المؤطَّرة لوالده وأخيه الأصغر قَطْع تلفُّظه، وينقل وظيفة السرد لهما، ما يجعل خطابه متعدِّد الأصوات، كما يتجلّى في الموضع التالي:

"وصاح أبي: ولكنَّنا لم نسمع صوت الطلقة! فأجاب الصيّاد الصغير: لقد سحرتُ البندقيّة يابا.."

وهكذا؛ يتبيَّن - أوَّلًا- أنَّ راوي القصة الإطار استطاع أن يضفي الصدق على خطابها، حين أجرى القصة في القصة داخله، ويتبيَّنُ - ثانيًا- أنَّ رواي القصة المؤطَّرة استطاع أن يعطي حكايته انطباعًا بصدقها وواقعيّتها حين وظَّف الخطاب الفوري وبنية الحوار فيها.

ومن ناحية دلالية؛ يتبدّى أنَّ الشيخ القروي استدعى القصة من ذاكرته، التي تُجسِّد ذكرياته مع والده وإخوته في الأرض؛ وإنَّما يهدف من استدعائها إلى توضيح موقفه الرافض بيع أرضه لجيش الاحتلال؛ لأنَّ بَيْعها، بالنسبة إليه، يعني بَيْعَهُ ذكرياتِهِ فيها؛ ما يؤدّي إلى فناء ذاكرته، التي تحتفظ بتلك الذكريات، ويتأكَّد ذلك في حديثه، الذي وجَّهه إلى ابن أخته بعد سرده القصة:

"يا خالي، هل ينتظرون منّي أن أوقّع على قسيمة بيع هذه الذكريات؟! .. ما أقصر باع قوانينهم!"

وهكذا؛ يتجلّى أنَّ راوي القصة الإطار لجأ إلى إجراء القصة في القصة في داخل الخطاب؛ لكي يؤدّي وظيفتَيْنِ فيها:

وظيفة دلالية: يُفسِّر بوساطته سلوك شخصية خال الراوي، ويُبيّن موقفها من بيع الأرض لمُحْتلِّها، ويوضِّح، في الوقت نفسه، القهر الذي يمارسه الاحتلال الإسرائيلي على الفلسطينيّين، نتيجة امتلاكه السلطة، التي تُمكِّنه من فَرْض سيطرته على الأرض، فالقانون معه كما قال الجار في أثناء محاورته خال الراوي.

وظيفية إقناعية: يُكوِّن بوساطته فعل الاعتقاد لدى المسرود له بحقيقة ما يشير إليه خطابه؛ إذ يتيح فيه لشخصية من شخصيّات الحكاية أن تتحدَّث بلسانها عمّا كان قد جرى معها؛ ما يضفي نوعًا من التصديق على خطابه.

خاتمة

يقتضي تحديد فضاء مرجعي في خطاب قصة "بوّابة مندلباوم" أن نأخذ بعين الاعتبار الواقع الذي يحيل إليه؛ لكونه يحقِّق وظيفة مرجعية، تفترض توافر إجراءات سردية فيه توهم بواقعيته، أو تحاول إظهاره كما لو كان واقعيًّا، ويتبدّى الفصل العاملي، ساعتئذٍ، إجراءً خطابيًّا يستهدف الإيهام الواقع، والدفع إلى تصديقه.

ويتحقَّقُ إجراء الفصل العاملي في خطاب قصّة "بوّابة مندلباوم" في الأشكال السردية، التي يَرِدُ فيها الخطاب المنقول، فيتجسَّدُ في بنية الحوار، والمونولوغ المنقول، والخطاب الفوري، والقصة في القصة، ومن ثَمَّ تُحقِّق الأشكال كلُّها قطيعةً تلفُّظية بين تلفُّظ الراوي وتلفُّظ الشخصية؛ ما يسمح بظهور صوت آخر، يتحدَّثُ، غير صوت الراوي في خطاب القصة، فنكون حينئذٍ أمام راوٍ من داخل الحكاية، يقابلُ الحدَّ (لا- أنا)، ويُؤطِّرُهُ راوٍ آخرُ من خارج الحكاية، يحال إليه بالحدِّ (أنا)، فالذي يُحقِّق إجراء الفصل العاملي، حينئذٍ، هو استبعاد الحدّ (أنا) ليحلَّ محلَّه الحدُّ (لا- أنا).

ويحمل إجراء الفصل العاملي وظائف عِدّة على مستوى الخطاب القصصي، أهمُّها: الإيهام بحقيقة ما يشير إليه الخطاب، وإضفاء الصدق عليه، وبناء دلالته، وتزويد شخصيّاته بآثار دلالية، تسهم في فهم عوالمها، وكشف إيديولوجيّتها. وله وظيفة دلالية أيضًا؛ إذ يُجلّي الواقع الجديد الذي فرضته النكبة عام 1948م، ذاك الذي يعكس في الخطاب:

- تقسيم مدينة القدس إلى قسمين: شرقية، وغربية، وعزل أهلها بعضهم عن بعض.
- وتضييق الاحتلال الإسرائيلي على الفلسطينيّين وإمعانه في حصارهم وقهرهم، مقابل تسهيله على الأجانب وتنافسه مع الجانب الأردني في إرضائهم والإذعان لهم.
- وخوف الفلسطيني على مصيره، وقلقه من نفوذ الإسرائيلي وبطشه؛ فالأوَّل يملك الأرض، ولكنَّ القانون يمنحها للثاني.

ويُنْتِج إجراء الفصل العاملي أثرًا مرجعيًّا في داخل خطاب القصة، يوحي بحقيقة ما يشير إليه، ويمنح انطباعًا أقوى عن صدق الحكاية التي يُجسِّدها؛ لكونها تتقدّم فيه بوصفها صورةً عن الواقع، تستند إليه، وتحاول مطابقته.

ويوصي البحثُ بإجراء مقاربة نقدية بين إجراء الفصل العاملي والخطاب المنقول، والإفادة ممّا أتاحته السيميائية السردية والخطابية، والسرديات التلفُّظية. ويوصي أيضًا بقراءة خطاب قصة "بوّابة مندلباوم"، من وجهات نظر عِدّة، وليس من وجهة نظر السيميائية البنيوية فقط؛ حتّى تسند النتائج التي توصَّل إليها البحث، وتدعمها.

بيان الإفصاح

- **الموافقة الأخلاقية والموافقة على المشاركة:** لا ينطبق.
- **توافر البيانات والمواد:** البحث يدور حول قصة قصيرة لإميل حبيبي من مجموعته القصصية "سداسية الأيام الستّة وقصص أخرى".
- **مساهمة المؤلفين:** لم يشاركني باحث آخر في فكرة البحث ولا في كتابته.
- **تضارب المصالح:** لا يوجد تضارب مصالح في البحث.
- **التمويل:** لا يوجد.
- **شكر وتقدير:** أشكر جامعة النجاح الوطنية لتشجيع موظّفيها على الإنتاج البحثي (www.najah.edu).

ACCEPTED

Open Access

This article is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License, which permits use, sharing, adaptation, distribution and reproduction in any medium or format, as long as you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons licence, and indicate if changes were made. The images or other third-party material in this article are included in the article's Creative Commons licence, unless indicated otherwise in a credit line to the material. If material is not included in the article's Creative Commons licence and your intended use is not permitted by statutory regulation or exceeds the permitted use, you will need to obtain permission directly from the copyright holder. To view a copy of this license, visit https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المراجع

- إسماعيل، عز الدين. (1971). *سداسية الأيام الستة*. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر: المجلة. (174).
- برنس، جيرالد. (2003). *قاموس السرديات* (الطبعة الأولى؛ ترجمة السيّد إمام). القاهرة، مصر: ميريت للنشر والمعلومات.
- جينيت، جيرار. وريمون، دوغلاس. وجان، ريكاردو. وميشيل، بوتور. (1989). *نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير* (الطبعة الأولى؛ ترجمة ناجي مصطفى). الدار البيضاء، المغرب: دار الخطابي للطباعة والنشر.
- حافظ، صبري. (1996). إميل حبيبي وسرد إحياء الذاكرة الفلسطينية. *مجلة الدراسات الفلسطينية*، (27).
- حبيبي، إميل. (2006). *سداسية الأيام الستة وقصص أخرى* (الطبعة الأولى). حيفا: دار عربسك للنشر.
- ريفارا، رينيه. (2015). *لغة القصة: مدخل إلى السرديات التلفّظيّة* (الطبعة الأولى؛ ترجمة محمد نجيب العمامي). جامعة القصيم، المملكة العربية السعوديّة: منشورات البحث العلمي – جامعة القصيم.
- زيتوني، لطيف. (2002). *معجم مصطلحات نقد الرواية* (الطبعة الأولى). بيروت، لبنان: دار النهار للنشر.
- عبد الجبار، أحمد فوزي. (2003). *لقاء عند بوّابة مندلبوم* (الطبعة الأولى). فلسطين: مركز الأرشيف الوطني الفلسطيني.
- غريماس، ألفريد جول، وجوزيف كورتيس (2020). *السيميائيات: القاموس المعقلن في نظرية اللغة* (الطبعة الأولى؛ ترجمة رشيد بن مالك). عمّان، الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- القاضي، محمد، الخبو، محمد، السماوي، أحمد، العمامي، محمد نجيب، عبيد، علي، بنخود، نور الدين، النصري، فتحي، آيت ميهوب، محمد .(2010). *معجم السرديات* (الطبعة الأولى). تونس: دار محمد علي للنشر.
- قطيش، علاء. (2018، 16 يونيو). عين على "مندلبوم": البوّابة الحاضرة الغائبة. تمّ الوصول إليه في 1 سبتمبر 2024، من https://babelwad.com/ar/%D8%B9%D8%A7%D8%A8%D8%B1%D9%88%D9%86/%D8%B9%D9%8A%D9%86%D9%8C-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D9%85%D9%86%D8%AF%D9%84%D8%A8%D9%88%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%88%D9%91%D8%A7%D8%A8%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%BA%D8%A7%D8%A6%D8%A8%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AD/
- كورتيس، جوزيف. (2010). *سيميائية اللغة* (الطبعة الأولى؛ ترجمة جمال حضري). بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- محمود، حسني. (1984).هاجس العودة في قصص إميل حبيبي: قراءة نقدية في قصتي النورية والسلطعون. *فصول*، 4 .(4) الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- نجم، محمّد يوسف. (1974). *فنّ القصة*، ط 6. بيروت، لبنان: دار الثقافة.
- نوسي، عبد المجيد. (2002). *التحليل السيميائي للخطاب الروائي البنيات الخطابية- التركيب- الدلالة*، ط 1. الدار البيضاء، المغرب: شركة النشر والتوزيع المدارس.
- وادي، فاروق. (1981). *ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية غسّان كنفاني، إميل حبيبي، جبرا إبراهيم جبرا*، ط 1، بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ياغي، هاشم. (1989). *الرواية وإميل حبيبي*، ط1. عمّان، الأردن: شركة الفجر للطباعة والنشر.

ACCEPTED

Rashid bin Malik. Amman, Jordan: Dar Kunooz Al-Ma'rifa for Publishing and Distribution.

- Al-Qadi, Muhammad et al. (2010). *Dictionary of narratives*. Tunisia: Muhammad Ali Publishing House.
- Qutaish, Alaa. (16/6/2018). *An eye on "Mendelbaum": the present but absent gateway*. Accessed on: September 1, 2024 AD. Electronic link: https://babelwad.com/ar/%D8%B9%D8%A7%D8%A8%D8%B1%D9%88%D9%86/%D8%B9%D9%8A%D9%86%D9%8C-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D9%85%D9%86%D8%AF%D9%84%D8%A8%D9%88%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%88%D9%91%D8%A7%D8%A8%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%BA%D8%A7%D8%A6%D8%A8%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AD/
- Curtis, Joseph. (2010). *The Semiotics of Language*, 1st edition. Translated by: Jamal Hadary. Beirut, Lebanon: University Foundation for Studies and Publishing.
- Mahmoud, Hosni. (1984). *The Obsession of Return in Emile Habibi's Stories: A Critical Reading of the Stories of Al-Nouria and the Crab*, Egyptian General Book Authority: Chapters, Volume 4, Issue 4.
- Najm, Muhammad Yusuf. (1974). *The Art of Story*, 6th edition. Beirut, Lebanon: House of Culture.
- Nosi, Abdel Majeed. (2002). *Semiotic analysis of novelist discourse, Discursive Structures - Structure - Semantics*, 1st edition. Casablanca, Morocco: Madras Publishing and Distribution Company.
- Wadi, Farouk. (1981). *Three Marks in the Palestinian Novel by Ghassan Kanafani, Emile Habibi, Jabra Ibrahim Jabra*, 1st edition, Beirut, Lebanon: Arab Foundation for Studies and Publishing.

References

- Bruner, Jerome. (Autumn, 1991). *The Narrative Construction of Reality*, Critical Inquiry, Vol. 18, No. 1.
- Bronwen and Felizitas, Martin and Ringham. (2000). *Dictionary of Semiotics*, London: Cassell.
- Prince, Gerald. (2003). *Dictionary of Narratives*, 1st edition. Translated by: Al-Sayyid Imam. Cairo, Egypt: Merit Publishing and Information.
- Genette, Gérard et al. (1989). *Narrative theory from point of view to focus*, 1st edition. Translated by: Naji Mustafa. Casablanca, Morocco: Dar Al Khattabi for Printing and Publishing.
- Hafez, Sabri. (1996*). Emile Habibi and the narrative of reviving Palestinian memory*. Journal of Palestinian Studies, Issue 27.
- Habebi, Emil. (2006). *Hexagram of the Six Days and Other Stories*, 1st edition, Haifa: Arabsk Publishing House.
- Ismail, Ezzedine. (1971). *Hexagram of the Six Days*, Egyptian General Authority for Copyright and Publishing: Magazine, No. 174.
- Rivera, Rene. (2015). *The Language of Story: An Introduction to Verbal Narratives*, 1st edition. Translated by: Muhammad Najib Al-Amami. Qassim University, Kingdom of Saudi Arabia: Qassim University Scientific Research Publications.
- Zaytouny, Lateef. (2002). *Dictionary of Novel Criticism Terms*, 1st edition. Beirut, Lebanon: Dar Al-Nahar Publishing.
- Abdul Jabbar, Ahmed Fawzi. (2003). *Meeting at the Mandelbaum Gate*, 1st edition, Palestine: Palestinian National Archives.
- Greimas, A. J., and Joseph Curtis. (2020). *Semiotics, the rationalized dictionary in language theory*, 1st edition. Translated by:

ACCEPTED

– Yaghi, Hashem. (1989). *The Novel and Emil Habibi*, 1st edition. Amman, Jordan: Al Fajr Printing and Publishing Company.

ACCEPTED